**ثانيا- أدب السير:**

**تمهيد:**

حظي الخطاب السيري بانتشار واسع في الثقافة العربية الإسلامية، واتسع الاهتمام بها ليشمل شرائح من المجتمع كان الهدف من تدوين حياتهم أو جزء منها هو التأريخ للشخصية وأخذ العبرة منها، وعندما نتأمل الكم الواسع الذي يضمه الخطاب السيري يتضح بما لا يدع مجالا للشك أن هذا النوع السردي استطاع أن يؤسس لنفسه نسقا خاصا في الثقافة العربية فقد امتد من سير الشخصيات الدينية أولا: الرسول (ص) والخلفاء الراشدين، وبعض الصحابة المتميزين إلى الشخصيات السياسية في الأزمنة واللاحقة للعصر الإسلامي، واتسعت أكثر لتشمل شخصيات المتصوفة وما تحفل بها حياتهم من مناقب وكرامات.

لماذا هذا الاحتفاء بالسيرة في الثقافة العربية الإسلامية؟

كان للاهتمام بالأنساب دورا أساسيا في توجيه التأريخ عند العرب فالخطاب السيري هو خطاب تولد من الاهتمام بالأنساب الذي طبع السلوك العربي لفترات تاريخية معينة.

**1- تعريف السيرة**([[1]](#footnote-2))**:**

يحيل لفظ (السيرة)، دلاليا على الطريقة، وتقترن أنها السنة فثمة تلازم بينهما، فسنة القوم: طريقهم، وسيرتهم، ولهذا فمن المعاني الأساسية للسيرة الطريقة المحمودة المستقيمة كما تدل السيرة على الحديث فيقال "سيّر سيره: حدّث أحاديث الأوائل تشير الدلالة الأخيرة إلى أمرين، الأول: تضّمن اللفظ معنى الخبر أو الحكاية) والثاني الإشارة إلى قدم مرويات السيرة، بدلالة ربطها بأحاديث الأوائل، وأصبحت السيرة بدلالتها الاصطلاحية في المجال الديني تحيل على (الترجمة المأثورة لحياة النبي محمد) واقترنت المغازي واستعملت مفردة ترجمة في الاصطلاح بمعنى سيرة لكنها ظلت تدل على تاريخ الحياة الموجز للفرد، وإن كان هناك فرق بين السيرة والترجمة ليس في طبيعة الآثار الأدبية التي تحيل عليها المفردتان فقط، بل في الاستخدام الشائع لهما في المصادر العربية أيضا، ففيما كانت السيرة تحيل على المرويات والمدونات التي عنيت بشخص الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، كانت الترجمة تحمل على خلاصات موجزة للتعريف بأعلام الحديث والفقه والأدب واللغة والطب والحكمة...إلخ.

ينبغي أولا الوقوف على السيرة النبوية، فهي النص المؤسس للشكل السردي أو على الرغم من تأرجح مدونات السيرة النبوية بين تأسيس الشكل السيري، وتوظيف إمكانيات فن الخبر، فمن ناحية سردية كانت تلك المدونات إطارا دُمجت فيها شذرات كثيرة من جهود الإخباريين، والنسابين، والمؤرخين، والأدباء، والمحدّثين، وسواهم، ولهذا تعد السيرة النبوية ذخيرة لجهود الجميع.

**2- السيرة النبوية: الأصل المؤسس**

أصبحت حياة الرسول بعد وفاته مباشرة، وخلال القرون اللاحقة، موضوعا لعدد كبير من المرويات ولحقه ما تركه محمد بن إسحاق (151ھ/768م) التي تعد مدوناته الصورة شبه الكاملة لمرويات كثيرة ومتناثرة كانت تتداول مشافهة قبل أن يأمر المهدي ابن اسحاق بتدوينها، بيدا أن الصورة النهائية للسيرة النبوية، إنما تكاملت على يد عبد الملك بن هشام (213ھ-828م) الذي إشتهر بحمل العلم، سبق هذا التدوين إطار سردي شفوي للسيرة، حيث استأثر كل من عروة بن الزبير وأبان بن عثمان باهتمام المصادر الأساسية وكان الزهري من أعلام الرواة الذين تعد مروياته الأصل الذي قامت عليه مدونات ابن إسحاق([[2]](#footnote-3)).

**3- الأشكال السردية للسير العربية:**

انبثقت السيرة النبوية من وسط المناخ السردي الشفوي في القرن الأول الهجري، ثم استقامت هيكلا في النصف الأول من القرن الثاني، فجذبت إليها كثيرا من المأثورات الإخبارية، والقصصية، وتجلّت فيها جهود الرواة، والمحدّثين، والإخباريين، وبالتداول تبلور شكلها العام، ولم يقتصر على شخصية الرسول فكثير من الرجال حوله استأثروا بمكانة متميزة، وكثير منهم أسهم في تأسيس التحولات الكبرى في المجتمع الإسلامي، ولهذا ظهرت الحاجة إلى تدوين أخبارهم، والتعريف بهم وبسواهم من الشخصيات في العصرين الجاهلي والإسلامي، إلى ذلك فإن عملية جمع الموروث الشعري، والسردي، والإخباري، والديني، التي انطلقت بقوة في القرن الثاني سرعان ما أظهرت للوجود مدنا ثقافية كالبصرة والكوفة، وفيهما وفي غيرهما من المدن الأخرى نشط تداول المرويات وتدوينها، كما أن التفاعل الثقافي العارم في تلك المدن شجعّ العمل في هذا المجال، فانطلق الرواة إلى الحجاز، واليمن، ونجد، وعمان، وشرق الجزيرة، وإلى مواطن القبائل العربية، ومواقع الأيام الجاهلية والإسلامية، لتقضي أخبار الشعراء، وجمع اللغة، والحديث، والأشعار والأمثال، ومرويات أيام العرب، وفي تلك المدن التي قامت بتأصيل الثقافة العربية عرفت العقود الضمنية الأولى بين الرواة الشفويين والمدوّنيين الأوائل، فظهرت أولى المصنفات الكبيرة مدونة، وبدأت تتبلور شروط الرواية، وشروط التدوين، وبرزت أهمية الإسناد بوصفه الطريقة الوحيدة في الثقافات الشفاهية للتحقق من صدق الأخبار والمرويات، وترسخ الإسناد كوسيلة للتواصل بين ثقافة الحاضر وثقافة الماضي، فكان يمثل الإطار الذي يقوم بترتيب المرويات وتوثيقها.

**أ- التراجم:**

لا يخفى الباعث الديني وراء ظهور التراجم وطبقات الرجال في شتى حقول الأدب والمعرفة، ذلك أن العناية بالرجال كان يراد بها أولا؛ خدمة الحديث النبوي بالحكم على رواية، ووزنهما بأدق الموازين([[3]](#footnote-4)).

تمثل التراجم جزءًا كبيراً من الموروث الفكري والأدبي، يصعب حصره، امتد إلى جمع حقول النشاط الثقافي، وتنهض التراجم على قواعد محددة تهدف إلى التعريف الموجز بالمترجم له، اسما وكنيته ولقبا، تعقبها وقفة وجيزة على أخباره ونتاجه الأدبي أو العلمي تناسب أهمية الشخص وتتراوح هذه التراجم بين أسطر قليلة.

تمنح وجهة نظر المؤلف الشخصية الترجمة طابعا ذاتيا وأدبيا، وأسلوب التعبير هو الآخر يشحن التعريف أحيانا بسمات أدبية، على أن البذور السيرية الأولى في التراجم لا تخفي تأرجحها بين التوثيق والتعبير، فالهدف التعريفي يحول في كثير من الأحيان دون الارتفاع بالمستوى التخيلي إلى درجته التمثيلية الأدبية، وفي جميع الأحوال تعتبر التراجم أدبا إستعاديا تجري فيه عملية بناء صورة للشخصية إستنادا إلى سلسلة متضاربة أحيانا من المرويات، فارتسامها عند المتلقي يتشكل طبقا لوجهة النظر المؤلف، وطريقة ترتيب المرويات، ودرجة التحيزّ، وهذه مكونات أدبية، ففي الأدب السيري ينحو التركيز إلى الكيفية التي تتم فيها عملية تركيب صورة الشخصية، أكثر من انصرافها إلى المواد المكونة للصورة نفسها.

**ب- السير الوضوعية:**

نصطلح ب"السير الموضوعية" على تلك التراجم المستفيضة التي تؤلف كتبا قائمة بذاتها، معروفة المؤلف وتعني بأعلام معروفين على نطاق واسع، وتفصّل في حياتهم، وأعمالهم وآثارهم، وتهتم بالموقع الاعتباري لهم على المستويات التاريخية، والفكرية والأدبية السياسية، وتقدّمها بوصفها أنموذجا يحتذى في عصرها، شأن سيرة بن الخطاب لابن الجوزي، وسيرة أحمد بن طولون للبلوي....([[4]](#footnote-5))

تحكم السير الموضوعية قواعد محددة يتبعُها كُتابها وهي: الوقوف المفصل على شخصية صاحب السيرة، وما يميز السير الموضوعية عن غيرها من أشكال السير العربية أنها تعني بشخصية استأثرت باهتمام الناس، وأصبحت مآثرها معروفة وشائعة، فتأتي السيرة الموضوعية كجمع كل ذلك في إطار واحد، وتقوم السيرة بوصف المركز الاعتباري الذي بلغته الشخصية وتضفي عليه أوصافا كثيرة هي نتاج المرويات الإخبارية حول تلك الشخصية، يحاول كتاب السير الموضوعية إضفاء سمات شبه خارقة على الشخصيات، لذلك هي تمثل مرحلة من التعبير السردي تقع بين التراجم والسير الشعبية.

**ﺟ- السيرة الذاتية:**

عرف الأدب العربي شكلا آخر من أشكال السيرة، وهي "السيرة الذاتية" حيث يتكفّل أصحابها بكشف تكّونهم الفكري، وتطورهم الروحي، والثقافي بشكل عام، وهو ما جعلها ترتبط بالفلاسفة والعلماء، والفقهاء والمؤرخين، وتشكل السير الذاتية بابا ضخمًا في الأدب العربي القديم.

تورد المصادر التاريخية سيرة مبكرة لسلمان الفارسي **(36ﻫ-656م)** يسندها الخطيب البغدادي بن عباس **(68ﻫ -687م)** وإذا صحت نسبه السيرة مدّونة تكون من أوائل المرونات في الثقافة العربية ويورد بن سعد بعد ذلك، في كتابه (الطبقات الكبرى) سيرة للواقدي **(206ﻫ-25م)** الضليع بمرويات السيرة النبوية، ثم يتوالى ظهور السير الذاتية العربية، فتزامن مع التطور الثقافي المتنّوع، وتزدهر بمرور الزمن([[5]](#footnote-6)).

لو نظرنا إلى السير الذاتية من جهة نظر تاريخية نجد أنها طبقا للسير الأولى التي ذكرناها لسلمان الفارسي والواقدي، ظهرت في محضن الثقافة العربية الإسلامية، لكن هناك من يذهب إلى أن هذا الفن مستحدث عند العرب 'قلدوا فيه غيرهم من الأمم الأجنبية التي قرأوا آثارها، وخاصة اليونان وهذا الرأي يعتمد على ما قال به جرونباوم من أن أول من ترجم لنفسه جالينوس، وأن العرب أخذوا عنه ذلك، كما أنهم عرفوا تعريب ابن المقفع لسيرة برزويه التي وردت في مقدمة كتاب كليلة ودمنة في النصف الأول من القرن الثاني، وشيئا فشيئا استأثر هذا الشكل من أشكال السيرة باهتمام المفكرين والمؤرخين، ورجال الدين فظهر عدد كبير من السير الذاتية للرازي، وابن الهيثم، وابن رضوان، حنين بن إسحاق، والغزالي، وابن طفيل، وابن الجوزي، وابن خلدون، والغزّي والمرادي، وابن حزم، والسيوطي، وابن حجر العسقلاني والمحاسبي والشعراني، وعشرات غيرهم.

كانت السيرة الذاتية قصيرة مختزلة في أول أمرها، ثم راحت تتوسّع قرنا بعد قرن، يقول روزنتال: "أن النقطة الرئيسية في كل التراجم الذاتية العربية، هي وصول الشخص إلى الإيمان بمذهب من المذاهب، أو دين من الأديان"([[6]](#footnote-7)) وهذا التعميم يحيل على عناية كتّاب السير الذاتية بجانب التشكل العقائدي والفكري لهم، ولهذا فهم يغفلون الجانب الوجداني لشخصياتهم، ويحاولون التأكيد على الجانب الاعتباري لتكونهم الذاتي متّبعين الأساليب المباشرة في التعبير حينا، كما والايماء والرمز والتلميح حينا آخر، كابن طفيل، أو استعمال الأسلوب المباشر في التعبير عن الذات يتجّلى في سير ابن سينا والغزالي وابن خلدون.

**- سيرة ابن طفيل:**

قام ابن طفيل (**581ﻫ**-**1185م**) في اختيار طريق التصوف، وصولا إلى "حكمة الإشراق" وهي المرحلة الأكثر سموا في التصوف الروحي والعقلي، التصوف القائم على النظر، والتدبر، والاعتبار، ثم الكشف، والإشراق، وهو يستعين بأكثر أساليب التعبير غموضا وإيماء وتعمية لتدوين سيرته الذاتية، مستعيرا حكاية رمزية تمثيلا لخياره العقائدي، وبحثا في فلسفة الإشراق عنده.

عدَّ كتاب "حي بن يقظان" منذ القدم خطابا في الفلسفة، وهو مملوء بالإيحاءات الفلسفية، ففي حياته تتردّد كثير من تلك الأفكار، وقراءته بوصفه سيرة ذاتية لابن طفيل، توجب بحثا خاصا في دائرة الإشراق، حيث تتنفس هذه السيرة أنسام ذلك الإشراق.

نلاحظ أن حي بن يقظان تمثل كل هذا، تمثلا حيًا وعميقًا، وطبقه تطبيقا كاملا، وهو في مغارته، فأفلح في بلوغ مرحلة الكشف والمشاهدة، عبر المعاينة والنظر أولا، والبحث والتقصي ثانيا، ثم التماهي في ذات الخالق أخيراً، لتسطع في داخله أنوار الإشراق([[7]](#footnote-8)).

إذن التوسل بالسرد الرمزي مكّن ابن طفيل من تمويه دعوته إلا على مَن هم في مقام نفسه، كما حرر وسائله التعبيرية في كشف ما لا يُكشف بالوصف والحجاج والتحليل.

**د- السير الشعبية:**

هي قصص مستقاة من التراث العربي. تمجد فيها الأخلاق العربية الأصيلة كقوة العربي وعزته وشهامته وتنكر فيها الأخلاق السيئة كالخيانة والغدر تتميز ب:

* الصور المتخيلة للإيصال العظام في التاريخ العربي والإسلامي.
* تستدعي أشهر فرسان العرب ليكونوا أبطال عصور غير عصورهم فهو نوع من استحضار الماضي المجيد) لمواجهة عصر، انحسر فيه الدور العربي- الإسلامي تعلق الجماعة الإسلامية لمواجهة بذكرياتها. كعنتره بن شداد، وسيف بن ذي يزن، الأميرة ذات الهمه، السيرة الهلالية، وأبي زيد الهلالي، الظاهر بيبرس...
* الحروب الصليبية في العصور الوسطى وما ستدعته من وجوب حضور هذا النوع من السرد.

تظهر حاجة لها؛ حيث يقول الباحث.

* فاروق خورشيد، "حاجة العرب لشكل إسلامي للتعبير الأدبي يبعدهم عن الارتباط بالأشكال الأدبية المنحدرة من الأسطورة الوثنية القديمة".
* تطور أيام العرب (أخبار كثيره).
* ظهرت هذه المرويات بخط مواز للمغازي([[8]](#footnote-9)).

1. () ينظر، عبد الله إبراهيم: موسوعة السرد العربي، دار فارس للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2005، ص174. [↑](#footnote-ref-2)
2. () ينظر، عبد الله إبراهيم: موسوعة السرد العربي، ص175. [↑](#footnote-ref-3)
3. () ينظر، عبد الله إبراهيم: موسوعة السرد العربي، ص181. [↑](#footnote-ref-4)
4. () ينظر، عبد الله إبراهيم: موسوعة السرد العربي، ص182. [↑](#footnote-ref-5)
5. () ينظر، عبد الله إبراهيم: موسوعة السرد العربي، ص183. [↑](#footnote-ref-6)
6. () ينظر،المرجع نفسه، ص183. [↑](#footnote-ref-7)
7. () ينظر، عبد الله إبراهيم: موسوعة السرد العربي، ص186. [↑](#footnote-ref-8)
8. () ينظر، عبد الله إبراهيم: موسوعة السرد العربي، ص194. [↑](#footnote-ref-9)